



مجلة التراث

J-ALT

2018/ Vol:8 N°01

Available online at: <http://www.asip.cerist.dz>

<https://www.asip.cerist.dz/en/PresentationRevue/323>

تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي الراشدي خطبة البيعة للخليفة أبي بكر الصديق أنموذجاً

الدكتور: مصطفى أحمد قنبر، وزارة التعليم والتعليم العالي — دولة قطر

مجلة التراث، العدد 29 / ديسمبر 2018، المجلد الأول، الجزء الثاني

لتوثيق هذا المقال:

مصطفى أحمد قنبر، تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي الراشدي خطبة البيعة للخليفة أبي بكر الصديق أنموذجاً، مجلة التراث، العدد 29، المجلد الأول، ديسمبر 2018.

تاريخ الإنشغال: 2018/06/21

تاريخ الإصدار: 2018/12/16

تاريخ قبول النشر: 2018/12/29



الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل لغوي لأول خطاب سياسي في العصر الراشدي، قصد منتجه الصّديق أبو بكر إلى عرض خططه لقيادة الدولة أمام مبايعيه. وقد أظهرت الدراسة مدى وعي المتكلم بدوره، وفهمه للغة وطاقاتها، وفهمه للمتلقى، ونجاحه في إيصال رسالته.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب السياسي؛ المتكلم؛ المتلقى؛ الرسالة.

Abstract:

This study seeks to a linguistic analysis of the frist political discours in The Al Rashidi century. His Producer (Alsadiq Abu Bakr) intended to Show his plans from the State leadership in front of Who elected him.

The study appeared extent of The speaker's realization to his role, and his understanding of language and their energies and his understanding of the recipient and his Success in Access of his message.

key words:

Political discourse; Speaker; Recipient; Message.

تُعد خطبة البيعة لأول خليفة في الدولة الإسلامية (الصديق أبو بكر) أول مبادرة في العرف السياسي يعلن فيها المسؤول الأول في الدولة — عقب تطويقه بأمانة الخلافة — عن المبادئ التي سيسير عليها في قيادته للأمة، وهذا ما دأب عليه الحكام حتى عصرنا هذا.

جاء هذا الخطاب السياسي الأول من أول خليفة للمسلمين بعد وفاة القائد الأول للدولة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم؛ كاشفاً عن الخطوط العامة لسياسته التي كانت محل ترقب من جمهور المبايعين في سقيفة بني ساعدة. الذين بايعوا على السمع والطاعة، وذلك من خلال ما سيعرضه عليهم في خطابه عن منهجه في الحكم، وتعهّداته التي سيعمل على الوفاء بها، وما يحتاجه من الرعاية حتى يفي بذلك. كما أنه سيعمل على طمأنة أولئك الذين لم يشهدوا البيعة أنه لن ينحرف عن السير بالبلاد والعباد نحو إقرار مبادئ الحق والعدل.

ولا شك أن الظروف العَصِيَّة: السياسية والاجتماعية والعسكرية التي انتقل فيها القائد الأعظم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وُلي فيها الخليفة الراشد الصديق أبو بكر تمثّل تحدياً لا يستهان به أمام من سيتصدى لحمل الأمانة والسير بالسفينة إلى البر الآمن.

جلس الجميع مهاجرون وأنصار يستمعون إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، القائد الجديد الذي سيقودهم في مرحلة جديدة أقل ما توصف بأنها مرحلة حرجة وفاصلة في تاريخ الدولة الفتية؛ نظراً للمهام العديدة المختلفة والشائكة التي تنتظر الرجل داخلياً وخارجياً، وما تمثله هذه من أزمات عليه أن يتخذ فيها القرار الحاسم والحازم الذي لا ريب أن تداعياته العاجلة والآجلة سيكون له أثر كبير على كافة الصُّعد الداخلية والخارجية للأمة، ومن ثمّ مسيرة هذه الدولة الناشئة.

جلس الجميع يستمعون للرجل الذي يعرفونه جيداً في الجاهلية والإسلام بكل ما فيه من صفاته التي مازته من غيره، وقد أجمعوا على اختياره لقيادة دولة الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيا تُرى ماذا سيقول الرجل؟ وما الأولويات التي سيركز عليها في خطبته؟ وكيف وظّف اللغة بطاقتها المختلفة للتعبير عما أراد؟ وإلى أي مدى كان تطويع هذه الأداة العجيبة مرتقياً للوصول إلى الهدف المنشود من إقناع وتأثير؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء عليه.

نص الخطاب:

بُويع الخليفة الراشد الأول بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، وخطب في جمهور المتلقين خطبة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: " تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ. ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِن أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِن أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي. الصَّدِّقُ أَمَانَةٌ، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح عنه، إِن شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى أَخَذَ مِنْهُ الْحَقُّ إِن شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدْعُ قَوْمُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرْبَهُمُ اللَّهَ بِالذُّلِّ، وَلَا يَشِيعُ قَوْمٌ قَطُّ الْفَاحِشَةَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَعْطَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، فُؤِمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَزَحِّمُكُمُ اللَّهُ." (1)

تحليل الخطاب الراشدي الأول:

قبل اللّوج إلى العوالم التحليلية لهذا الخطاب السياسي علينا أن نعرّج على عتبات هذا الخطاب فنقف على الظروف المحيطة بإنتاجه، ونتأمل في عناصره التي أمدته بالحياة. لأنها تمثل إضاءات لا يمكن إغفالها في تحليل الخطاب، إذ يفهم بها مضامين الخطاب وأساليب صياغته والمقاصد التي رامها منتجه. فماذا عن الظروف التي كانت محيطة بولادة هذا النص؟

الظروف المحيطة بولادة النص:

جاء هذا الخطاب الراشدي بعد أن بويص الصّديق أبو بكر بالخلافة من كل مكونات المجتمع الإسلامي مهاجرين وأنصار ممن حضر المشهد في سقيفة بني ساعدة في ظل ظروف سياسية واجتماعية وعسكرية أقل ما توصف به أنها بالغة الخطورة وتمثل تحديًا كبيرًا لمسيرة الدولة.

وقد تُني المسلمون بوفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وكانت مفاجأة صادمة طاشت إثرها أحلام الصحابة لهول المصاب وروعة الرزية، وحق لها أن تطيش، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يأمرهم وينهاهم، فقبضه الله إليه، وانقطع الوحي فلا ينزل أبداً، وفقدوا رسول الله فلا يلقونه إلى يوم القيامة. فارتجت المدينة بالكاء وزلزلت قلوب الصحابة. (2) والعجيب أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قد سمعوا وتلوا وحفظوا من كتاب الله ما يشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم بشر سيجري عليه ما يجري على كل البشر من مصير لا يملك له ردًا، ومن ذلك قوله تعالى

"إِنَّمَا كُنْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَهُمْ وَيَكُنْتُمْ مِثْلَهُمْ يَوْمَ تَكُونُ النُّجُومُ" الزمر: 30.

ما إن علم الصّديق نبأ وفاة صاحبه صلى الله عليه وسلم، حتى سارع رضي الله عنه بتدبير الأمر لترتيب الأوضاع الداخلية في الدولة، وكان أول عمل قام به بعد تيقّنه من انتقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أن خرج للناس ينعي صاحبه صلى الله عليه وسلم. وما كاد ينتهي من ذلك ليتفرغ مع مجموعة من أهل النبي يحيطون بجثمانه الشريف ويعدون العدة لتجهيزه ودفنه - حتى يأتيه الخبر باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتشاور في مَنْ يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. (3) وكان قد وقع اختيارهم على سعد بن عباد.

سارع الصّديق إلى هذا الاجتماع وتفاوض مع القوم ووُفق الخليفة الراشد بما وهبه الله من حجج ومنطق استطاع أن يقنع به الحضور، وما آتاه الله من قدرة على امتصاص غضب المخالفين، حيث: "استطاع الصّديق أبو بكر - رضي الله عنه - أن يدخل إلى نفوس الأنصار فيقنعهم بما رآه هو الحق، من غير أن يُعرّض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار ببيان ما جاء في فضلهم من الكتاب والسنة. والثناء على المخالف منهج إسلامي يقصد منه إنصاف المخالف وامتصاص غضبه، وانتزاع بواعث الأثرة والأنانية في نفسه؛ ليكون مهياً لقبول الحق إذا تبين له، وقد كان في هدي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الكثير من الأمثلة التي تدل على ذلك. ثم توصل أبو بكر من ذلك إلى أنَّ فضلهم وإن كان كبيراً لا يعني أحقيتهم في الخلافة؛ لأن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد نص على أن المهاجرين من قريش هم المقدمون في هذا الأمر. وقد ذكر ابن العربي المالكي أن أبا بكر استدلل على أمر الخلافة في قريش بوضعية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بأن أنصار خيرًا، وأن

يقبلوا من محسنهم ويتجاوزوا عن مسيئهم»، ومما احتج به أبو بكر على الأنصار قوله: إن الله سمانا «الصادقين» وسماكم «المفلحين» إشارة إلى قوله تعالى: {لَلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّامِرَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْتَوُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِيَّاهُمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حِجَابًا مِمَّا أَوْتُوا وَيُؤْثَرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّقْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 8، 9]، وقد أكرمكم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]، إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القوية؛ فتذكرت الأنصار ذلك وانقادت إليه. وبين الصديق في خطابه أن من مؤهلات القوم الذين يُرشحون للخلافة أن يكونوا ممن يدين لهم العرب بالسيادة وتستقر بهم الأمور؛ حتى لا تحدث الفتن فيما إذا تولى غيرهم، وأبان أن العرب لا يعترفون بالسيادة إلا للمسلمين من قريش، لكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، ولما استقر في أذهان العرب من تعظيمهم واحترامهم. وبهذه الكلمات النيرة التي قالها الصديق اقتنع الأنصار بأن يكونوا وزراء معينين وجنودًا مخلصين، كما كانوا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذلك توحد صف المسلمين. "(4)

لقد كان يوم السقيفة يومًا خالداً بحق من أيام الإسلام، تجنب فيه المسلمون خلافات قد تعصف بوحدة الدولة الناشئة واستقرارها، فماذا لو أن الأنصار أصروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة لدعاء سعد بن عباد ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر، فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة الرسول! ولأية ثورة جائحة مسلحة وجيش أسامة في أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار، وكلهم مدجج بسلاحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عدته! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ممن ليس لهم في نفوس المسلمين جميعاً ما لوزير رسول الله ولأمين الأمة من مكانة، لشجر الخلاف بينهم وبين الأنصار، ولخيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه، ولكان لذلك أثره الذي لا يفكر اليوم فيه مؤرخ، ولما وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية الحوادث وذكر الخطب التي تبودلت، وما تم على أثرها من بيعه أبي بكر. أما الذين يقدرون الحوادث قدرها، فيرون لهذا الاجتماع التاريخي من الأثر في حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى المدينة، ويرون فيما كان من أبي بكر وحسن تصرفه في الموقف عمل الرجل السياسي، بل رجل الدولة البعيد مرمى النظر، والذي يقدر النتائج ويرتب للاحتتمالات، ويوجه كل جهده إلى الغرض الذي يريد أن يحقق به أعظم الخير ويتقي به كل ضرر أو أذى. "(5)

منتج الخطاب وقائله:

يستمد الخطاب عامة والسياسي على وجه الخصوص أهميته من عدة نواح، منها شخصية منتجه وشخصية قائله، ذلك أن منتج الخطاب السياسي - خاصة في العصر الحديث في بلداننا العربية - غالباً ما يكون غير قائله وإن كان في النهاية ينسب إلى الأخير.

وقد صاغ خطاب البيعة هذا وألقاه الخليفة الراشد الأول الصّديق أبو بكر، وقد كشفت الظروف المحيطة بولادة الخطاب - التي عرضنا له - جانباً من جوانب شخصية هذا السياسي المخنك. فهو رضي الله عنه الصحابي المعروف بأدواره المتعددة في الجاهلية والإسلام التي أشتهر بها وجعلته يحتل مكانة مرموقة في التاريخ السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية، ولا يخفى قربهِ ومكانته من صانع القرار في الدولة الإسلامية محمد صلى الله عليه وسلم.

ويكشف النظم الذي انماز به هذا الخطاب عن المقدرة اللغوية التي تتمتع بها المتكلم من توظيف للمفردات والتراكيب عن وعي بطاقتها التعبيرية وقدرتها على النفاذ إلى أفهام المتلقين، والحرص على وضوح الرسالة أو الرسائل التي تحملها مضامين هذا الخطاب، إلى جانب فهم أقدار المخاطبين ومنازلهم الاجتماعية والثقافية؛ ومن ثمّ تكون المخاطبة من المرسل حسب هذه الأقدار؛ مما يجعل الخطاب موسوماً بالملاءمة، وبعيداً عن الغرابة أو الضبابية، وجديرًا بأن يحظى بنسب عالية من القبول.

المتلقي:

وهم المعنيون بالخطاب من قِبَل موجه الخطاب، وهؤلاء يمثلون شرائح المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار الذين تجمعوا في سقيفة بني ساعدة في أول يوم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم المتلقون المباشرون لهذا الخطاب الراشدي، أما الباقيون ممن أظلتهم حظيرة الإسلام التي امتدت رقعتها في جزيرة العرب حتى وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد لزمته صفة التلقي أو المخاطب حتى أولئك القلائل الذين قيلَ إنهم تأخروا أو اعترضوا على البيعة في أول الأمر.

ولم يكن هؤلاء المتلقون في مرتبة واحدة فمنهم السابقون الأولون من المهاجرين ومنهم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان، ومنهم أهل بدر ومنهم من أسلم يوم الفتح، ومنهم كذلك من له باع في الفصاحة وفن القريض والقدرة على الحجاج.

تهيئة البيئة النفسية للخطاب:

تُعد تهيئة البيئة النفسية للخطاب من فقه المرسل حين يريد توجيه رسالته إلى المتلقين، وما ذلك إلا لضمان وصول مضامين رسالته وفهمها على وجهها الصحيح بما يحقق هدي الإقناع والتأثير. ولم يكن منتج الخطاب الصّديق أبو بكر إلا متأسيًا بصاحبه القائد الأول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في افتتاح خطبة بحمد الله والثناء عليه، وهكذا كل الخطباء الذين تتابعوا في

الدولة الإسلامية إلى يومنا هذا، وذلك بنسب متفاوت من مخاطب لآخر ومن عصر لآخر.

ثم يأتي النداء محذوف الأداة (أَيُّهَا النَّاسُ) وهو نداء يخاطب عموم المتلقين، جذبا لانتباه الحضور واستحضارا للأسماع؛ وذلك لأهمية ما سيُدلي به القائد الجديد من مضامين تعبر عن سياسته التي سينتهجها في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة الفتية، ناهيك عن إشعار السامعين بالقرب الوجداني وضيق المساحة أو انعدامها بين طرفي الخطاب.

مضامين الخطاب:

يستمد الخطاب السياسي أهميته من عدة زوايا منها إلى جانب شخصية منتجه وقائله – كونه يتعامل مع المشكلات الكبرى للحياة العامة، كيف يصفها ثم يشكّلها؟ وهل هي بحجم تصور جمهور المتلقين لها، أم أن الخطاب يقلل من شأنها أو يبالغ في قدرها؛ لذا فإن الصورة اللفظية لهذا الخطاب أصبحت هي المصدر الرئيس لفهم الواقع السياسي، وأساس العمل الرسمي، وأساس شعور الشعب بالتفاؤل أو التشاؤم، بالرضا أو السخط حول سير الحياة السياسية في الدولة. (6)

ولما كانت مضامين أي خطاب سياسي يراد لها أن تكون معبرة عن الحقائق والأفكار، فليس من سبيل إلى ذلك إلا باللغة، وعلى الرغم مما يقال إن الحقائق والأفكار أقوى من الكلمات المعبرة عنها، إلا أن هذه الحقائق والأفكار لا يمكن أن تصبح قوية حتى تعرف، وفي معظم الأحيان يتطلب ذلك لغة مصوغة بشكل ملائم تصل إلى جماهير المتلقين بوسائل محددة جداً، ودون هذه اللغة تظل هذه الحقائق والأفكار خرساء، حبيسة فكر منتجها. (7)

وإذا وضعنا هذه المسلمات أمامنا، نجد أن الخطاب السياسي الموجه من الخليفة الراشد الأول الصديق أبي بكر عقب مبايعته بالخلافة قد اشتمل على مجموعة من الحقائق والمضامين تمثل أهمية قصوى عند المتكلم؛ من أجلها وقف هذا الموقف، وهي لا ريب كانت محل اهتمام وترقب من جمهور المتلقين، وقد جاءت على الترتيب الآتي:

- قبول الصديق بالخلافة مع أنه ليس بالأفضل.
- الوقوف إلى جانب الخليفة ونصرته.
- العدل بين كل فئات المجتمع.
- التحذير من ترك فريضة الجهاد.
- عاقبة شيوع الفاحشة في المجتمعات.
- طاعة الخليفة مادام مطيعاً لله ورسوله.

التأكيد على الموضوعات الكبرى:

تحاول بعض الخطابات – خاصة السياسية – التأكيد على الموضوعات الكبرى من وجه نظر منتج الخطاب ومتلقيه، وغالباً ما يوجد بون ما بين رؤى طرفي الخطاب المتكلم والمتلقي حول أولوية الموضوعات أو ما يسمى بـ

استراتيجية التأكيد على الموضوعات الكبرى (Strategy Of Emphasizing Macro Topics)، فبينما تنتظر جماهير المتلقين من منتج الخطاب تناول موضوعات ما، يرون أنها ذات أولويات في حياتهم الراهنة إذا هم يشعرون بخيبة

الأمل؛ إما لتجاهل هذه الموضوعات، أو لتناولها تناولا عابرا لا يليق بها. وقد بيّنت البحوث التجريبية أن تركيز النخب على الموضوعات العامة وتعريفات القضايا أو أطرها بكيفية ما، قد يكون لها أثر كبير في التفسير والرأي العام. (8)

كانت المضامين التي اشتمل عليها خطاب الصّديق محل اهتمام وقبول من جماعة المتلقين سواء الحاضرين في يوم السقيفة أو المتابعين لتطور الأحداث مذ أُعلن عن انتقال النبي القائد الأول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه جلّ وعلا، مروراً السجال الفكري الذي دار بين الأنصار والمهاجرين حول الخلافة ومن أحق بها إلى أن بويع الصّديق أبو بكر. حتى من أولئك الذين غابوا عن السقيفة ويعرفون جيداً مَنْ تاريخ المبايع في الجاهلية والإسلام.

لذا لم تكن الموضوعات أو المضامين التي حملتها رسالة المخاطب غريبة أن تصدر من رجلٍ له هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال. بل نالت رضا المتلقين وتُرجمت عملياً في عدة قرارات اتخذها الخليفة في فترة حكمه، كان لها دور كبير في استقرار الدولة وتوسع رقعتها والقضاء على مصادر التهديد التي كانت تترصد بها وتريد النيل منها.

وقد تنوعت هذه الموضوعات الكبرى — كما رأينا — فمنها ما يتعلق بالشأن الداخلي أو المجتمعي كالحفاظ على السلم والأمن في ربوع الدولة، ومنها ما يتعلق بالممارسات السياسية كالرقابة الشعبية على أداء الحاكم وتقييم الأداء، ومنها ما يتعلق بالشأن الخارجي الذي يتمثل في عدم القعود عن فريضة الجهاد لتأمين حدود الدولة ونشر الدعوة.

ترتيب الأولويات:

يعمد كثير من منتجي الخطاب السياسي وقائليه مذ عرف هذا النوع الخطابات إلى الدفع في المقدمة بقضايا يرونها ذات أهمية عندهم أو عند جماهير المتلقين، وتأخير أخرى أو الإعراض عنها؛ ذلك أن تناول بعضها — خاصة إذا ارتبط بانحرافات أو إخفاقات أو إهمال أو نتائج عكسية — قد يخضم مما يسمى درجة الشعبية أو الرضا عن الأداء العام من مؤسسات الدولة والمسؤولين فيها. وهناك طريقتان تقوم من خلالهما اللغة السياسية بترتيب الأولويات:

الأولى: عندما يُولي السياسي اهتماماً لموضوع أو شخص ما؛ فإنه يضيف عليه أهمية ويتسبب في إبرازه، والعكس صحيح إذ يتوارى من قِبَل سياسيين وصحافيين بارزين.

الثانية: هي التحكم في عملية انتشار المعلومات، فأحياناً يحاول السياسيون إخفاء إنجازات منافسيهم أو معارضيهم، كما يحاولون حجب أخطائهم أو انحرافاتهم الشخصية أو الحزبية، حتى عندما تصبح هذه الإخفاقات معروفة يسعون جاهدين لصرف الانتباه عنها بوسائل شتى مثل: الحديث عن قضايا أخرى، أو البحث عما يسمى (كبش فداء)، أو القيام بعمل عسكري خارج البلاد... لكنّ هذه المحاولات قد تبوء بالفشل ويعجز السياسي عن السيطرة على انتشار المعلومات؛ مما قد يفضي إلى نتائج وخيمة. (9)

هذا ما يعمد إليه السياسيون الذين يحرصون على الحفاظ على مناصبهم، أما القلة القليلة وفي مقدمتهم من عرفوا بالتقوى والصلاح في التاريخ الإسلامي فإن ترتيب الأولويات في خطاباتهم تحكمه المصلحة العامة للشعوب، وقد تجلّى ذلك بوضوح في خطبة الصّديق حيث يعلن أمام الجميع أنه (وَيْ) وليس تَوَلَّى أو استولى، وأنه ليس بأخيرهم، وما ذلك تظاهراً

بالتواضع، أو سعيًا إلى كسب مزيد من التأييد ليظل محتفظًا بمنصبه؛ فالرجل معروف للقاصي والداني بزهده ورغبته عن السلطان. ثم يأتي طلب العون من الرعية بتقديم النصح وإسداء الرأي عند الإحسان أو الإساءة، ثم ينتقل من العموم إلى الخصوص فيؤكد على قضايا: العدل وتطبيقه على الجميع، والتحذير من شيوع الفاحشة بما يضمن سلامة الجبهة الداخلية، والاضطلاع بفريضة الجهاد نشرًا لدين الله. ثم يختتم بتأكيد واجبات الرعية نحو راعيها الممثلة في طاعته شريطة أن يكون هو طائعًا لله ورسوله.

وضوح الرسالة:

إذا كانت اللغة عملية تواصلية لرسالة بين المرسل والمتلقي من عناصرها:

المرسل

الرسالة

المتلقي

وكل فرد متكلم هو في الوقت نفسه مرسل ومستقبل لرسالته، بما أنه يستطيع إرسال الرسالة وفك رموزها - فإنه لن يرسل إلا ما يستطيع فك رموزه، لأن الرسالة المرسلّة إلى الطرف الآخر هي قبل كل شيء رسالة إلى صاحبها وهو ما يميز القول إن الكلام يحدث في الذات أولاً، وفي الوقت نفسه فإن المستقبل المحلل للخطاب لا يحلله إلا في النطاق الذي يسمح له بقول ما يسمعه. (10) وتؤكد معظم الدراسات أن الرسالة المفهومة والواضحة تكون على درجة من الإقناع أكبر من الرسالة غير المفهومة. (11) ولا يختلف هذا الأمر من ثقافة إلى ثقافة أو من عصر إلى عصر، بل يكاد يكون عامًا حتى مع غير بني البشر. (12)

وقد تميزت الرسالة التي حملها الخطاب السياسي الراشدي بالوضوح، فلم تكن المعاني المقصودة ضبابية أو تحمل عدة معانٍ متناقضة، ولم تكن ألفاظها بعيدة عن المعهود من أنماط الخطاب السائدة في ذلك المجتمع، وكانت التراكيب جارية على سنن التأليف العربي، ورغم مرور أكثر من ألف وأربعمائة عام على إنتاج هذا الخطاب فإن مضامين الرسالة التي حملتها لا زالت تتميز بالوضوح والبيان رغم ما جرى من تطور على اللغة عبر العصور، وما تعرضت له العربية من هجمات شرسة حاولت أن تجعل من فصاحتها لغة أخرى غريبة على أبنائها.

مخاطبة المتلقي مباشرة:

تُعد مخاطبة المتلقي مباشرة من وسائل الاستمالة التي يسلكها منتج الخطاب؛ للوصول إلى هدفه من الإقناع والتأثير، وقد تجلّى ذلك بوضوح من أول جمل الخطاب، الذي بدأ بتوظيف أسلوب النداء محذوف الأداة، وذلك يؤشر إلى القيمة الكبرى التي تحملها المضامين التي تلت أسلوب النداء.

وقد اقتدى منشئ الخطاب بما جرت عليه سنن الخطاب في الأساليب العربية الرفيعة وعلى رأسها القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" البقرة/21، ومنها ما بدأ به صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع إذ استفتح صلى الله عليه وسلم

بقوله " أَيُّهَا النَّاسُ: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس: إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، اللهم اشهد. " (13)

ثم ما تلا المقدمة من موضوعات حتى ختام الخطاب إلا ما تعلق بالجهاد والتحذير من شيوع الفاحشة، حيث كان ضمير المخاطب المتصل حاضرًا في أكثر من عنصر من عناصر جمل الخطاب الاسم، والفعل، والحرف: (عَلَيْكُمْ، بِحَيْرِكُمْ، أَعِينُونِي، قَوْمُونِي، مِنْكُمْ فَيْكُمْ، أَطِيعُونِي، عَلَيْكُمْ، قَوْمُوا، صَلَاتِكُمْ، يَرْحَمَكُم).

إجلال المتلقي وتوقيره أثناء مخاطبته:

لن تفضي قلة الاهتمام بالمتلقي والنظر إليه بالدونية — خاصة إن كان المتكلم من صانعي القرارات — إلا إلى مزيد من الهوة بين طرفي الخطاب، ولذا نجد كثيرًا من منتجي الخطابات — خاصة السياسية — يُبدي احترامه وتقديره للمتلقين — ولو ظاهريًا — من خلال ما يخلعه عليهم من صفات الإباء والعزة والانتساب للوطنية... وخطابات بعض الساسة العرب خاصة في النصف الثاني من القرن الماضي حافلة بالشواهد.

وقد جاء الخطاب النبوي حافلاً بما يدل على توقيير المتلقي وإجلاله، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك توظيف أسلوب النداء عند مخاطبته للأَنْصَار — في أحد اجتماعه بهم — كان بالصفة المحبة التي يعتز بها المتلقي ويفخر، هذه الصفة التي خلعها عليهم القرآن الكريم (الأنصار)... " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ " في مفتتح الخطاب، فلم يناديهم بأسماء قبائلهم أو بأسماء آبائهم... وإنما قصد إلى ذلك تأكيداً على شرف الانتماء الأشمل والأعم الذي ارتبط بهم دون غيرهم، وكانوا أحق به وأهل، وقد تكرر هذا النداء مرتين في وسط الخطاب. ثم كررت الصفة (الأنصار) في مختتم الخطاب خمس مرات. (14)

إن ما يبدو من إجلال منتج الخطاب لمتلقيه هو من عوامل التقارب بين طرفي الخطاب، وعامل له دوره في نجاح الرسالة وإزالة الفوارق أو الحواجز التي ربما ساعدت على صنعها وبروزها تفسير خاطئ لمواقف منتج الخطاب، أو سوء فهم من المتلقي لأفعال صدرت من المخاطب. وهذا الإجلال والتوقير في خطاب المتلقي من مراعاة الكياسة واللياقة، وليس إظهاراً للود الزائف أو التملق للآخرين الذي قد يؤثر سلباً في العلاقات السوية، ولذلك أمثلة عديدة في واقع عمليات التفاوض الاجتماعي والإداري والسياسي. (15)

ففي توظيف أسلوب النداء محذوف الأداة (أَيُّهَا النَّاس) ما يشعرهم المتلقين بالقرب النفسي بما لا يحتاج معه إلى جلب أداة نداء، وفي ذلك نوع من التوقير وإشعار بالإجلال، وفي طلبه تقديم الإعانة والتقويم للخليفة عند الإحسان والإساءة إجلال للمتلقين وثناء عليهم؛ إذ هم أهل لإسداء النصح للمسؤول الأول في الدولة، وأهل لأن يُسَمَّعَ إليهم. وعند تحذيرهم من ترك واجب أو فريضة، أو شيوع رذيلة كان الخطاب غير مباشر لهم؛ فعَبَّرَ — (قَوْم) دون أن يصرح باسم أو بضمير يعود عليهم. وهذا منهج في التوجيه كريم علَّمه النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم لصحابته، جاء في صحيح ابن حبان: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُرَيْمَةَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي صَفْوَانَ الثَّقَفِيُّ حَدَّثَنَا بِهِزُ بْنُ أَسَدٍ قَالَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لِكَيْ أَصْلِي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجَ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" (16)

وفي ذلك أيضا ما يعبر عن درجة الثقة الكبرى في المتلقين، إذ يُجلبهم بالترفع عن اقتراح رذيلة أو التفريط في واجب أو فريضة من فرائض الدين. فكان توجيه الخطاب لهم بطريقة غير مباشرة.

بروز الأنا الفردية:

ثنائية الأنا الفردية والأنا الجماعية من الظواهر التي يقف عندها محللو الخطابات السياسية، إذ لوحظ أن سيكولوجية الخطاب مختلفة عند كل أنا. فينتقل الخطاب من الذات إلى الجماعة بمهارة، فعند الرئيس الأمريكي السابق بوش تظهر الأنا الفردية أكثر من الأنا الجماعية؛ ذلك لأنه هو المسيطر الوحيد على هذه المعركة وأن الحكم بيده، وقد تظهر الذات الفردية من دون وعي منه؛ لأنه يريد أن يلتفت الجميع إليه. وعندما ترد الأنا الجماعية عند هذا الحاكم ففيها إلماح إلى عظمة الذات، فـ "سنساعد، سنقوم، سنحقق، سنبدل، سندرس" أفعال تدل على عظمة الذات وقدرتها على الإنجاز مع الفعل الجزئي للجماعة. (17)

وبالعودة إلى خطاب الصديق نجد الأنا الفردية تبرز من أول جملة فيه (فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ) وحتى آخر جملة (فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ)، فهل الصديق هنا يريد أن يظهر الذات الفردية الفاعلة النافذة والمسيطرة بعد أن دانت له بالولاء جموع المهاجرين والأنصار؟ لا، فسيرة الصديق تنفي هذا الزعم مطلقاً، كما أن في الجملة التي تلت مقدمة خطابه وما بعدها ما يفند هذا الزعم، فكيف لحاكم يعتز بالأنا يعلن أمام مبايعيه أنه ليس بأفضلهم؟ وكيف لمن يعتز بذاته وأناه أن يطلب من الجميع أن يقوموه إذا أخطأ؟ وكيف لمن يعتز بذاته وأناه الفاعلة والنافذة أن يبدي احتياجه لمن يشد من أزره ويعينه إن هو أحسن؟

إن الأنا الفردية التي أظهرها الصديق في أول خطاب سياسي له أمام مبايعيه تعني تحمله المسؤولية الكاملة عن القرارات دون غيره، وحتى ولو كانت من معاونيه فهو صاحب القرار والمسؤول الأول عن إنفاذه، إضافة إلى تواضعه الذي لا يرتاب فيه أحد.

ثنائية الماضي والمستقبل:

تحتل كثير من الخطابات السياسية بالحديث عن شؤون الماضي والمستقبل، يستعيد فيه السياسيون الماضي ليشيروا مشاعر الزهو والإعجاب، أو البهجة والأمل، أو الحزن والإحباط، ويستشرفون آفاق المستقبل ليحذروا من عواقب محتملة، أو ليعيدوا بعيش رغيد وخير مديد في ظل سلطانهم الآتي. (18)

هذا الماضي بما فيه من إنجازات يستثمرها السياسيون لهم فتكون جزءاً من برامجهم في الدعاية الانتخابية، وينطلقون منها لاستعراض خططهم المستقبلية في كافة القطاعات؛ فتكون منجزاتهم في الماضي خير شاهد لهم على الوفاء بما يعدّون به. (19)

أما عن خطاب الخليفة الراشد هنا فقد خلا من الحديث عن الماضي، وكان كله موجّهاً لبرامجه في المستقبل، وعلة ذلك بيّنة: فتاريخ الرجل حافل بجلائل الأعمال ومنجزاته منذ سطع نور الإسلام لا تخطئها عين، ويكفيه شرفاً ما سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" الزمر: 33. وتزكية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم له ومنها قوله: «إِنَّ مِنْ أَمَرِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَأُتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خَلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَىٰ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ». (20) ومن ثم فلا حاجة لتذكير الناس به هذا من جهة، ومن جهة أخرى فما عُرف به من زهد - اصطبغت به شخصيته - جعله يترفع عن الفخر بنفسه أو بمنجزاته.

أما عن الحديث عن المستقبل فلم تكن وعوداً جوفاء أو لنيل قسط أكبر من الشعبية أو التأييد، وإنما كانت خطط عمل محددة وواضحة تتعلق - كما رأينا في مضامين الخطاب - بحثّه الناس على تقديم العون والنصح للحاكم في المنشط والمكروه متى أحسن ومتى أخفق، وتعهّده بنشر العدل بين الناس، ورفع راية الجهاد، ومكافحة الفاحشة، وفي مقابل ذلك على الرعية تقديم الطاعة والولاء للخليفة ما دام مطيعاً لله ولرسوله.

منطقية التفسير، وبراعة الإقناع:

يلجأ بعض منتحي الخطابات - خاصة السياسية - إلى جذب انتباه متلقيهم بتخصيص قضايا معينة لموضوعات خطاباتهم، حيث يوضحون أولوية هذه القضايا بالتناول وتفسيرها وبيان سبب استحقاقها هذا الاهتمام. (21) أو تناول ظاهرة ما طفت على السطح، فيعمدون إلى تفسيرها والربط بينها وبين ظواهر أخرى تزيد من أهميتها، أو بيان خطورتها ومن ثم يمكن لأحدهم أن يدخل إلى عقل المتلقي ويستلبه، وقد يصل الأمر إلى ما يسمى بالسيطرة على الجمهور (Audience Control). (22)

وتعتمد منطقية التفسير وبراعة الإقناع على مدي ما يوظفه منشئ الخطاب من استراتيجيات أو حجج تجعل أفكار الخطاب نافذة إلى عقل المتلقين فتنال القبول بل وتتمكن من توطيد أركانها بحيث يعصب محوها، أو تنصل الفرد منها. وكما رأينا الكثيرين ممن صاروا يُعتون بالنخب في البلدان العربية كيف نفذت إليهم الأفكار الاشتراكية في القرن الماضي فاختلطت بدمائهم، وصاروا يتكلمون ويأكلون ويشربون ويتنفسون بها، حتى بعد انهيار منبتها ومرتعها الخصب في أواخر القرن الماضي! بدأ الصّدق خطابه بتأكيد قضية يعرفها كل المتلقين (أنه وُلِّي)، لينطلق منها إلى تأكيد فكرة أخرى وهي أنه ليس بخيرهم، ومن ثمّ ينفي عن نفسه التفرد الذي يميزه من غيره؛ ولذا فهو دائماً في حاجة إلى الإعانة والتقويم عند الإصابة والإخفاق. وهذا لعمري أسبق وأعمق بكثير من مفهوم ما يسمى بدور منظمات المجتمع المدني في العصر الحديث، أو حتى

من دور الأحزاب السياسية المعارضة أو المجالس النيابية؛ لأن الباعث هنا شرعي وليس شخصياً أو مصلحياً ضيقاً، وضابط كل هذه الأمور العقيدة السمحاء التي فَرَّقَتْ بين الصدق والكذب وجعلت الأول أمانة، والثاني خيانة كما ذكر رضي الله عنه (الصدقُ أمانةٌ، والكذب خيانة).

وليس أمر الإعانة والتقويم مقصوراً على مجموعة من المقربين أو المستشارين، بل كل فرد من أفراد الرعية يجب عليه أن يقدم يد العون للخليفة إنْ أصابَ وأن يَقْوِمَهُ متى أساءَ؛ وهذا يجعل العلاقات بين الراعي والرعية فيها نوع من الألفة والثقة والفاعلية فليس الراعي بمنعزل عن رعيته، وليست الرعية تنافق راعيها أو تتملق له فتزين له ما يقوله أو ما يفعله من الخطأ صواباً ومن الباطل حقاً أو العكس؛ أو تُغْشِه فتُفَرِّقُهُ على كل ما يفعل باطلاً كان أو حقاً دون أن تنعم النظر في ذلك.

يقول الشيخ محمد الغزالي . يرحمه الله .: هذا هو وضع الحاكم المسلم في الدولة المسلمة، رجل من صميم الأمة يطلب أن يُعان على الحق وأن يمتنع من الباطل، ويرى السلطة المخولة له سياسياً لمصالح العامة لا مصيدةً للمنافع الخاصة، ولا باباً إلى البطر والطغيان. إنه ليس سيِّداً ليستعلي ويستعلن، وإنما ليؤدي عملاً موثقاً به، وكذلك المحكوم المسلم إنه ليس تابعاً ليمتلق ويرائي ويعطي الدنية من نفسه. بل ليعين على الخير ويحجز عن الشر ويشارك في حمل العبء، فالحاكم إمام والمحكوم مُقتد والكل يبتغي وجه الله وينخلع من أغراضه الخاصة، وبهذه السياسة وحدها يستقيم أمر الناس وترشد طريقة الحكم. (23) وهكذا قضايا العدل والجهاد والمحافظة على السلم الاجتماعي، وتعليق وجوب طاعته من قبل الرعية على التزامه بطاعة الله ورسوله، التي تبدو منطقية التفسير وبراعة الإقناع من أهم ما يجعلها تحظى بالقبول من جهة المتلقي.

التكرار:

التكرار في حد ذاته وسيلة مهمة من الوسائل السحرية التي تعتمد على تأثير الكلمة المكررة في إحداث نتيجة إيجابية في العمل الفني المميز. (24) وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، يقولون إن الشيء إذا تكرر تقرر، والتكرار تعرفه الشفرتان المنطوقة والمكتوبة كلتاهما، وإن كان تأثيره في بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى. (25) وللتكرار وظائف خطابية عدة عُبر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف وتوليد الكلام والتشديد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته. (26)

فالتكرار إذن من خلال هذا التعريف ليس مجرد ألفاظ موضوعة في الخطاب أكثر من مرة، فليس هو ذلك التكرار المولد للرتابة والملل، أو التكرار المولد للخلل والهلهله في البناء، ولكنه التكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانيزمات عملية إنتاج الكلام، وهو أيضاً التكرار الذي يضمن انسجام النص وتوالده وتناميته. (27)

واللفظ المكرر - بوجه عام - مصدره الثورة، وهدفه الإثارة حباً أو بغضاً في أي غرض من أغراض الكلام. كما أن التكرار مرتبط بقانون التردد من قوانين تداعي المعاني؛ ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير، ويرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد المعنى المكرر تميزاً من غيره. (28)

وفي عشرات الخطابات يعمد المتكلمون إلى تكرار ألفاظ وعبارات يهدفون من خلالها إلى إيصال مفاهيمها الدلالية إلى المتلقين، كإبراز أهميتها، أو التمسك بها، أو التباهي بها، أو التحذير منها... أو غير ذلك من الدلالات التي تستشف من النص، والتي تعكس الاتجاه الفكري للمتكلم، سواء كان فردياً أو مؤسسياً. أو تعبيراً عن السياسة العامة لتلك المرحلة.

ولولا أن اللفظ المتكرر وما يكتنفه من دلالات لا يثير اهتماماً عند المتكلم ما لجأ إلى تكراره، وما أصرَّ على أن ينقله إلى نفوس ووجدان مخاطبيه، أو من هم في حكم المخاطبين، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار. (29)

والتكرار في خطاب الصديق وقع لمفردات وتراكيب: فأما المفردات فكان للفظ الجلالة الظاهر (الله) التي تكرر تسع مرات والمضمر الذي جاء أربع مرات؛ وذلك لأن بعض الأفعال المسندة لا يصح شرعاً أو عقلاً إلا أن تسند إليه جلت قدرته كالمشيئة وإنزال العقاب والفيض بالرحمة، وكذا توجيه الحمد والثناء والطاعة من العبد للرب لا تكون إلا له سبحانه. وأما التراكيب فكان الجملة فعل الشرط (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عند التعهّد بنشر العدل بين الرعية. ولا ريب أن هذا التكرار لهذه الجملة ليس كما يوظفه السياسيون اليوم من إضفاء الصبغة الروحية على خطاباتهم لاستمالة الكثير من المتلقين خاصة في الدعاية الانتخابية، أو تعهّداً غير ملزم من المتكلم بما تكفل به من وعود مستقبلية؛ تعللاً بصدق النوايا والقيام بالمحاولات إلا أن مشيئة الله لم ترد لهذا العمل أن يكتمل أو أن يبدأ لما قد يجره من مضار كانت تخفى على الناس.

لكنّ التكرار من متكلم له سيرة حافلة في مسيرة الدعوة، أمام متلقين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفون المتكلم جيداً؛ هذا التكرار ليس إلا تأكيداً على الاستعانة بالله في كل ما تعهّد بالقيام به وتبرؤاً من حوله وقوته ومشيئته إلى حول الله وقوته ومشيئته، عملاً بقوله تعالى: "وَلَا تَقُولُ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا (23) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَأَذْكُرْ بِمِثْلِ إِذَا مَسَيْتَ وَكُنَ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي سُبُلِي لِأَقْرَبَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ۚ إِنَّهُ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ" (24) الكهف. وهذا دأب الصالحين من أولي الأمر.

الدعاء:

يلجأ بعض منتجي الخطابات السياسية إلى تذييل خطاباتهم أو افتتاحها ببعض الأدعية لإضفاء مسحة دينية على ما يقومون به أو ما يدعون إليه، وكسب مزيد من التأييد والكثير من الأنصار، ولعل كثيراً من المتلقين والمحللين ممن يسجلون ملاحظاتهم على مضامين الخطابات يقفون عند المفتتح والختام وأنواع الاستشهادات في فقرات الخطاب. لعلني أذكر ما وُجّه من بعض الناس خاصة العامة في مصر من انتقاد في خطابات الرئيس المصري الراحل أنور السادات في سبعينيات القرن الماضي إذ كان يبدأ خطابه بـ (بسم الله) فقط، دون أن يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنه كان يُنعت في بعض سني حكمه بالرئيس المؤمن. فلمّا جاء خلفه حسني مبارك كانت كل خطابه تُستفتح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وختم أول خطاب له بالدعاء. (30)

وقد ورد الدعاء في خطابات بعض الساسة المعاصرين من أمثال صدام حسين والملا عمر وأسامة بن لادن؛ لأن بعض الخطابات موجهة للمسلمين كافة، وتقترب من عقولهم، وكما صنع جورج بوش حين إعلان الحرب على أفغانستان والعراق. (31)

لكن الغرض من الدعاء هنا ليس كما عند السياسيين المعاصرين، إنه أولاً تأسٍ بما كانت عليه خطب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما أنه تعبير عن حبه الجماهير المتلقين، وليس تزيّفاً لغرض من أغراض الدنيا، فالرحمة متى أصابتهم فهم في سعادة وهناء وهذا ما يريده كل طرفي الخطاب. وقد يُقرأ الدعاء ضمن موقعه الوظيفي إذ الجملة جواب للشرط الذي أمر به حين دعاهم إلى الصلاة " قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ ". وكل هذا لا يفهم إلا في سياق مساحة ما بين المتكلم ومتلقيه من قرب ومودة.

وختاماً فقد سعت هذه الدراسة إلى الوقوف على تمثّلات اللغة في أول خطاب سياسي في العهد الراشدي أبرزنا فيها أهمية العناية بالظروف المحيطة بولادة النص عند تحليله والتي تجلت فيها بعض الأدوار لمنتج النص إضافة إلى الأدوار المجيدة السابقة له، وأظهرت الدراسة مدى وعي المتكلم بالمتلقين وخلفياتهم الثقافية المختلفة، وكيف هيأ المتكلم البيئة النفسية للخطاب. وأظهرت الدراسة أيضاً المضامين التي احتواها الخطاب وحصافة المتكلم في تضمين خطابه للموضوعات الكبرى وترتيبه للأولويات التي تميزت بالوضوح وبعدها عن اللبس أو الضبابية، كما أبانت الدراسة عن الاستراتيجيات التي اتبعها المتكلم، والتي تجلت في مخاطبة المتلقي مباشرة، وإجلاله وتوقيره أثناء الخطاب، وحاولت الدراسة تفسير الأنا الفردية التي ظهرت في الخطاب وأرجعتها إلى التأكيد على المسؤولية الشخصية، حيث يؤكد هذا بعد منشئ الخطاب عن تزكية النفس والفخر بأدواره في الجاهلية والإسلام، و رغبته في استشراف للمستقبل بخطط ترتكز على المشاركة الجماعية الداعمة له، ولا نعدم التأكيد على ذلك من خلال التكرار ومنطقية التفسير وبراعة الإقناع.

- (1) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت. 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط 1 (1408 هـ - 1988م). ج5، ص269.
- (2) علي الطنطاوي: أبو بكر الصديق، دار المنارة، جدة، ط3 (1406 هـ - 1984م) ص 150-151.
- (3) محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة (2012م) ص 49.
- (4) علي محمد محمد الصلّاغي: الانشراح وزُفُّ الضُّيق في سيرة أبي بكر الصديق شخصيته وعصره، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (1423 هـ - 2002 م)، ص120.119
- (5) محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر، ص51.
- (6) د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 32 (يوليو - سبتمبر 2003) ص215
- (7) المرجع السابق، ص 216.
- (8) انظر: فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م) ص372.
- (9) انظر: د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، في مجلة: عالم الفكر، ع 1، المجلد 32 (2003) ص 217.
- (10) محمد التحريشي: ترجمة مقدمة كتاب: اللغة ذلك المجهول، في مجلة: ثقافات، خريف (2002) ص 214.
- (11) د. علي رزق: نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة، دار الصفوة، بيروت، ط1 (1414هـ - 1994م) ص98.
- (12) لعل علماء النفس الذين صاغوا قوانين التعلم ومن أشهرهم ثورنديك (Thorndike) بعد تجارب مع بعض الحيوانات في فهم المثير ومن ثم الاستجابة له - ما يؤكد هذا الأمر. انظر في ذلك: جورج إم غازدا: نظريات التعلم، ترجمة: د. علي حسن حجاج، عالم المعرفة (70)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (أكتوبر 1983م) ص 47 وما بعدها.
- (13) انظر نص الخطبة في: ابن هشام (محمد بن عبد الملك بن هشام ت 183)، السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1 (1416 - 1995م) 4/ 297، 298.
- (14) انظر: الهيثمي (أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة (1414 هـ - 1994م)، 30-29/10.
- (15) انظر: د. حسن محمد وجيه: مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (ربيع الآخر 1415هـ/أكتوبر 1994م) ص 120
- (16) ابن حبان (محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي ت 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1 (1408 هـ - 1988 م) 1/191.
- (17) انظر: د. عيسى عودة برهومة: تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 36 (يوليو - سبتمبر 2007) ص144.
- (18) انظر: د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف، في مجلة: عالم الفكر، ص 217.
- (19) من الدراسات التي تناولت بالتحليل برامج الأحزاب السياسية للدعاية الانتخابية، دراسة: مصطفى أحمد قنبر: مستويات التحليل اللغوي للدعاية الانتخابية للأحزاب السياسية في مصر - انتخابات مجلس الشعب عام 2000 نموذجاً، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (2006م).
- (20) البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت. 256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1 (1422هـ) 5/ 5857.
- (21) د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، ص 218 وما بعدها.
- (22) انظر: فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م) ص 157 وما بعدها.
- (23) محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتاب العربي، (د. ت.).، ص30، 36، 37.
- (24) عبد الفتاح يوسف: فاعلية التكرار في بنية الخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2003) ع 62، ص31.

(25) د. محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة (2014) ص248.

(26) المرجع السابق، ص178-179.

(27) د. أبوبكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 (2010) ص 49. وانظر: دليلة قسيمة: استراتيجيات

الخطاب في الحديث النبوي، مذكرة مقدمة لنيل الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر (2011-2012م) ص167-168.

(28) د. عز الدين علي السيد: التكرير بين المثير والتأثر، عالم الكتب، بيروت، ط 2 (1407هـ - 1986م) ص136.

(29) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(30) استمع إلى جانب من أول خطاب لمبارك في:

https://www.youtube.com/watch?v=j_jHmNkn054

(31) د. عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر ص145.

المراجع

أولاً: الكتب:

- 1.. علي محمد محمد الصلّابي: الانشراح وَرَفَعُ الصَّيْقُ فِي سِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ شَخْصِيَّتِهِ وَعَصْرِهِ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (1423 هـ - 2002 م)،
- 2.. ابن حبان (محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي ت 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1 (1408 هـ - 1988 م)
- 3.. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت. 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط 1 (1408 هـ - 1988م).
- 4.. ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، ت 213هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2 (1375هـ - 1955م).
- 5.. أبو مدين الفاسي (أبو مدين بن أحمد بن محمد بن عبد القادر بن علي الفاسي، ت 1132هـ): مستعذب الأخبار بأطيب الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1425 هـ - 2004 م).
- 6.. أبوبكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 (2010م).
- 7.. البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت. 256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1 (1422هـ).
- 8.. الجاحظ (عمرو بن بحر بن، أبو عثمان، ، ت 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ).
- 9.. القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، ت 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2 (1384هـ - 1964م).

10. - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف د. محمد حمدي زقزوق، القاهرة (1424هـ - 2003م).
11. - الهيثمي (أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة (1414هـ - 1994م).
12. - تمام حسان: اللغة العربية ملناها ومعناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 (1979م).
13. - جورج إم غازدا: نظريات التعلم، ترجمة: د. علي حسن حجاج، عالم المعرفة (70)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (أكتوبر 1983م).
14. - حسن محمد وجيه: مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (ربيع الآخر 1415هـ / أكتوبر 1994م).
15. - حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر - بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6 (1989م).
16. - حورية رزقي: لغة الخطاب التربوي في صحيح البخاري بين التبليغ والتداول، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، الجزائر (1435-1436هـ / 2014-2015م).
17. - دليلة قسيمة: استراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، الجزائر (2011-2012م).
18. - عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3 (1413هـ - 1992م).
19. - عز الدين علي السيد: التكرير بين المثير والتأثر، عالم الكتب، بيروت، ط2 (1407هـ - 1986م).
20. - علي رزق: نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة، دار الصفوة، بيروت، ط1 (1414هـ - 1994م).
21. - فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م).
22. - محب الدين الطبري (أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري، ت 694هـ): خلاصة سير سيد البشر، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1 (1418هـ - 1997م).
23. - محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة (2014م).
24. - محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتاب العربي، (د. د. ت.).
25. - محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة (2012م).
26. - مستويات التحليل اللغوي للدعاية الانتخابية للأحزاب السياسية في مصر - انتخابات عام 2000 نموذجًا، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (2006م).

27. - مصطفى أحمد قنبر: الخطاب السياسي في الصحف الحزبية المصرية - دراسة معجمية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (2001م).
28. - نظر: فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م).
29. - هـسون: علم اللغة الاجتماعي، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط2 (1999).
- ثانيًا: الدوريات:

1. - أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، في مجلة: عالم الفكر، ع 1، مجلد 32 (2003).
2. - حنان محمد مهدي العقيدى: لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي: في مجلة: العميد، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، بغداد، العدد الخاص (1434هـ - 2013م).
3. - عبد الفتاح يوسف: فاعلية التكرار في بنية الخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2003ع 62).
4. - عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 36 (يوليو - سبتمبر 2007).
5. - محمد التحريشي: ترجمة مقدمة كتاب: اللغة ذلك المجهول، في مجلة: ثقافات، خريف (2002).
- ثالثًا: المواقع الإلكترونية:

- مقطع فيديو من أول خطاب لـ (حسني مبارك) في :

https://www.youtube.com/watch?v=j_jHmNkn054

كل الحقوق
محفوظة